الأهرام
مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: المصور
التاريخ: ١٩٧٥/١١/١٤

المسيرة الطويلة
من
الهزيمة إلى النصر

خمس سنوات مع السادات
الرجل الذى أحال هزائمنا إلى انتصارات

● لا شىء فى الواقع يؤثر فى حياة الشعوب وخاصة فى عصرنا هذا أكثر من الكلمة الحرة الشريفة المخلصة الشجاعة ، التى تعود دائما الشعوب على الخير وتحول بينها دائما وبين الوقوع فى الشر ، والتى تصل بها ـ فى النهاية ـ الى التقدم والتحرر والانطلاق ، والحياة السعيدة ، الامنة المطمئنة

وعادة لا تقاس اهمية تلك الكلمة بما تحتوى عليه من عبارات مزوقة وكلمات منمقة وانما تقاس اهميتها بقدر ما فيها من اخلاص ، وصراحة ، ووضوح ، وايمان والكلمة التى تستطيع تحقيق تلك الاهداف الكبيرة هى التى تنبع من ايمان صاحبها بها ومن استعداده للدفاع عنها بكل مايملك والعمل بكل حرف جاء فيها فما أيسر ان يكتب المرء اجمل المقالات ، ولكن ماأصعب العمل بكل ما يجىء فى تلك المقالات ، والكلمة الحرة الشريفة

المخلصة تكون عادة ـ وخاصة فى الاوقات التى تحاول فيها الشعوب ان تعيد بناء نفسها وأن تستخلص تجربتها من ايدى غاصبيها ـ اقوى من القنابل لان القنابل لا تنفجر الا مرة واحدة اما تلك الكلمات الحرة الشريفة المخلصة فهى تنفجر دائما فى وجوه أعداء الشعوب وفى صدورهم ايضا .

●

وفى تاريخ كل شعب من الشعوب يوجد نوعان من الصحافة عادة صحافة المبدأ الثابت والعقيدة الراسخة والايمان بحق الشعوب فى ان تحكم نفسها بنفسها وفى ان تتمتع بكل مافيها من خيرات وخبرات ، وصحافة القراصنة والافاعى ، صحافة الاكاذيب ، والترهات والتشهير والحملات وعادة لايبقى الا النوع الاول الذى يستمد وجوده ، وبقاءه من قدرته على التعبير عن مصالح الشعب ودفاعه عن حقوقه ، وامجاد الامم لاتقاس عادة بما شيدت من مبان ومصانع وطرق وموانىء بل بقدر ماتمتعت به صحفها من حرية ، وبقدر ماضمت تلك الصحف من صحفيين شرفاء مؤمنين بالكلمة ، ورسالتها ، واذا كانت الدول تتباهى عادة بمعالمها التاريخية وقبابها البرلمانية العالية فانها اليوم يجب ان تتباهى بصحفها الحرة المخلصة المؤمنة الصادقة القادرة على ان تنقل نبض الجماهير وان تعبر عن مصالحها الحقيقية

●

والذين يعرفون الرئيس محمد انور السادات عن قرب منذ مطلع شبابه الباكر حتى اليوم يعرفون عنه ايمانه القوى الذى لايتزعزع بالكلمة الحرة الشريفة كما يعرفون عنه تاييده الدائم للصحافة الملتزمة بالقيم العليا والمبادىء السامية والاخلاق الرفيعة ولقد اتيح لى كصحفى ان اقرا معظم ماخطه يراع الرئيس محمد انور السادات منذ ان بدأ يكتب للجماهير الى اليوم فوجدت فيه دائما نعم الكاتب الشريف المؤمن الصادق الملتزم بقضايا الشعب ، ولم أجد الكاتب انور السادات قد تناقض مع نفسه ولو مرة واحدة فى كل ماكتب . قرأت ـ مثلا ـ ماكتبه انور السادات فى « المصور »

من يوميات بدأت في الاسبوع الاول من شهر يوليو ١٩٤٨ تحت عنوان : « ٣٠ شهرا في السجن » كما قرات ما كتبه الرئيس انور السادات من مذكرات وذكريات قام « الاهرام » بنشرها منذ بضعة اسابيع ، ورغم ان اكثر من سبعة وعشرين عاما تفصل بين مانشر في « المصور » وما نشر في الاهرام الا انني حقيقة لم اجد في روح الكتابة اي فارق على الاطلاق . النبض الوطني القومي القوي هو هو لم يتغير ولم يتبدل ، الالتزام بقضايا الشعب ومصالحه هو هو لم يتغير ولم يتبدل الصراحة والوضوح ، والايمان بكل كلمة وكل حرف ، هو هو لم يتغير ولم يتبدل ومنذ ايام قليلة كنت اراجع ماكتبه انور السادات في « المصور » وفي « التحرير » وفي « الجمهورية » وتمنيت من كل قلبي لو ان بعض باحثينا قد تفرغوا لدراسة تلك المقالات دراسة علمية موضوعية وقاموا بنشر تلك الدراسة ، اذن ، لقدموا لجماهير شعبنا اجل الخدمات : لقد وقفت طويلا عند مقال نشره « المصور » لانور السادات بعد عودته من كوناكري حيث راس وفد الجمهورية العربية المتحدة ـ وكان لي شرف الاشتراك في عضوية ذلك الوفد كان المقال تحت عنوان : غريب في روما قريب في كوناكري وفي ذلك المقال كتب انور السادات يقول عن زيارته لروما : ان هذه اول زيارة لي لروما وهي ايضا اول اجازة حقيقية لي من اجل ذلك عولت على ان ارى اوروبا اكثر ما استطيع وبدأت اعد برنامج رحلتي على هذا الضوء وحينما اويت الى غرفتي في الفندق كانت كوناكري وافريقية لا تزالان تطنان في اذني ووجدتني من غير ان ادري احس الغربة في هذا البلد بعكس ماكنت احس وانا في كوناكري : انني احاول بكل طاقتي ان اقاوم هذا الشعور ولكنني اصطدم في كل خطوة اخطوها بمن يهتف بي : انت غريب غريب غريب ، وبدأت اذكر قول كبلنج شاعر بريطانيا : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ان المسالة ليست تعصبا وليست حقدا وليست عقدة نقص كما يخيل للبعض ولكنها اعمق بكثير من ذلك : فليس في كوناكري تماثيل رائعة كتلك التي في روما وليس في كوناكري نافورات

مضيئة ولا حدائق مترامية كتلك التى فى روما وليس فى كوناكرى عمل فنى واحد كالاف الاعمال الفنية التى يقف امامها الانسان مشدوها فى روما ومع ذلك فكوناكرى التى تبعد عنا الاف الاميال تقطعها الطائرات فى اكثر من اثنتى عشرة ساعة اقرب الينا من روما التى تبعد اليوم ساعتين ونصف ساعة بالطائرة عن القـــاهرة وكوناكرى اجمل فى نظرى من روما الف مرة : ان كوناكرى ننتمى الى الشرق الذى ننتمى اليه . وروما تنتمى الى الغرب الذى يصر على أن يباعد بيننا وبينه كل يوم بالافعال والاقوال » وعن التيرول النمساوى كتب انور السادات يقول : كنت أحلم بهـذا التيرول لقـد تصادف ان ارسل لى صديق فى السجن مجموعة مجلات المانية صدرت فى سنة ١٩٠٧ وكان فيها رســوم عن التيرول شغلت على نفسى اياما وليالى فى الزنزانة ومن يومها وانا احلم برؤية هذه الطبيعة . لقد رايتهـا اجمل واروع مما تصورت ، واذا سالتنى ان اصفها اليوم لن استطيع الا ان اقول اننى رايت الله فى هذا الجمال واخذت أردد على غير وعى منى ابياتا صوفيه لشاعر من ابناء هذه الجبال هو جان توكو وهو يناجى ربه ويقول : واسكب على يا الهى ضوء القناعة كى انفذ اليك فى حكمة العباقرة ، وزودنى يا الهى بروح التواضع كى اتقرب اليك فى وداعة البنفسجة ، واغدق على يا الهى فيض الصفاء كى يغتسل قلبى فى مياهك الزاخرة يا الهى بروائع جمالك كى اندمج فيك واسبح بحمدك دنيا وآخرة فانت انت هو المحبة وانت انت هو البركة وانت انت هو القوة والمجد والجمال » وفى روما وفينسيا وفيينا لاينسى انور السادات الكاتب الثائر همـــوم بلاده ، لاينسى ابدا ان يفتخر باهله وذويه : تراه مثلا يكتب فيقول : اكتب هـــذه السطور وانا اغادر فيينا ففى الصباح ساركب الطائرة عائدا الى بلادى لقـــد امضيت ثلاثة ايام فى هذا البلد ورايت فيها كل معالمه من ايام آل هابسبرج الى وقتنا هذا وبرغم كل هـــذا فانا افتقد بلدى واهلى وقريتى واحن اليهم وافخـــر بهم : اننى افخر ببلدى بعد ما رايت .. مارايت فى اوروبا افخر ببلدى الذى يمثل الكرامة الحقيقية والعزة الحقيقية : بعد ان رايت اوروبا تنسى الكرامة من اجل

الدولار وتتغاضى عن العزة من اجل النبيذ والطعام افخر ببلدى الفقير الذى يبنى كيانه ومستقبله المادى على غنى النفس وخلود المثل والروح ، بعد مارايت اوربا تفقد روحها من خلال التقدم المادى والتنكر للقيم والمثل والجمال : افخر بالشرقى وكل ماهو شرقى وافخر بقريتى الساذجة الوادعة حيث يؤمن الكل بالله وبالاخوة وبالرحمة : يعملون فى جلد وصبر ويتعاملون فى دعة وسماحة : اذا فرح احدهم فهو فرح الجماعة وان اصيب احدهم فهو مصاب الجماعة ..

وفى نهاية ذلك المقال .. الذى اثرت نقل بعض اجزائه ينقل انور السادات بعض ابيات للشاعر العربى الكبير عمر ابو ريشة وقد التقى به فى فيينا - حيث كان يعمل سفيرا للجمهورية العربية المتحدة ومن بين تلك الابيات التى نقلها انور السادات قول عمر ابو ريشة وهو يعبر فى صراحة ووضوح عن الامنا بعد نكبة فلسطين .

امتى كم صنم مجدته ... لم يكن يحمل طهر الصنم
لايلام الذئب فى عدوانه ... ان يك الراعى عدو الغنم
فاحبسى الشكوى فلولاك لما ... كان فى الحكم عبيد الدرهم

وهكذا دائما انور السادات : الكاتب الثائر ، المخلص لقضايا شعبه المؤمن بقدسية الكلمة الحرة الشريفة ولذلك لم يكن بغريب على انور السادات ان يكون دائما المدافع عن حرية الكلمة : العامل دائما على توفير كل الضمانات للكتاب والصحفيين ، فى بداية ثورة ١٩٥٢ كان انور السادات زميلنا القديم - اقرب اعضاء مجلس قيادة الثورة الى كل الكتاب والصحفيين يتفهم دائما طبيعة عملهم : يقف دائما الى جوارهم ، يدفع دائما الظلم عمن لحق به منهم : عندما اعتقلت فى يونيو ١٩٥٥ بسبب موضوع الاستفتاء على نظام الحكم بعد فترة الانتقال كان انور السادات اول ما فكر فيه زملائى واصدقائى للاستعانة به فى بذل الجهود للافراج عنى : خلال الفترة التى قضيتها سكرتيرا عاما لنقابة الصحفيين من ١٩٥٥ ، الى ١٩٦٥ وخلال الاعوام التى قضيتها فى عضوية مجلس النقابة بعد ذلك لا أذكر ان محنة المت بصحفى الا وكنا نلجأ الى انور السادات

للاستعانة بجهوده فى رفع تلك المحنة ، ولذلك فلم يكن بغريب على انور السادات بعد ان آلت اليه قيادة هذا الشعب وزعامته ان يكون باستمرار عاملا على توفير الحرية للصحفيين وان يكون باستمرار المدافع عنهم

ولعل فى مقدمة ماتذكره فى هذا الصدد انه ولم يكن قد مضى على مبايعة الشعب له سوى ثلاثة اسابيع حدث ان تعرض أحد رؤساء التحرير لمحنة قاسية لم يقف بجانبه فيها الا انور السادات وقد روى الرئيس انور السادات هذه القصة عندما تحدث الى طلاب جامعة الاسكندرية فى ٣ ابريل ١٩٧٤ فقال : فى ذكرى اربعين الزعيم عبد الناصر كتب رئيس تحرير صحيفة عندنا مقال : قال عبد الناصر ليس أسطورة وفى اللجنة التنفيذية العليا اثار اعضاء اللجنة من مراكز القوى موضوع هذا المقال قال فيه موضوع خطير جدا : فيه واحد رئيس تحرير صحيفة كتب مقالة وقال عبد الناصر ليس اسطورة وهذا الكلام طعن فى عبد الناصر والناصرية ، وشرعية النظام وراح يتدرج فى شرح المقال الى ان اتهم رئيس التحرير هذا بالخيانة العظمى امام جميع اعضاء اللجنة التنفيذية العليا وقالوا لى خد قرارك قلت لهم طيب فى الجلسة المقبلة اجتمعت اللجنة التنفيذية العليا وطلبت رئيس التحرير اللى اتهم بالخيانة قلت له اقعد قدام اللجنة : عضو اللجنة التنفيذية العليا اللى اتهمه بالخيانة قلت له قول الكلام اللى انت قلته كله لان انا اومن اولا ان لكل انسان حق فى الدفاع عن نفسه نمرة « ١ » ونمرة « ٢ » انه لايستغل الانسان مكانه او منصبه بالانفعالات او الاحقاد لان ده عيب قوى وقال عضو اللجنة التنفيذية العليا كلامه ، ورد رئيس التحرير وخرج رئيس التحرير وسالت اللجنة العليا رايها ايه واعتبرنا الموضوع منتهى ولا خيانة عظمى ولا حاجة ثم يقول الرئيس السادات : انا مازلت عند كلامى ان الانسان يجب ان يواجه بما عليه ولا يؤخذ بالتقارير ولا بالانفعالات ولا بعمليات الاحقاد : كل انسان لازم يدافع عن نفسه علشان كده باقول : سيادة القانون :

الحرية كل الحرية للشعب ولا حرية لاعداء الشعب بس بسيادة القانون مش بالافراد » . وقد حرص الرئيس السادات على ان تكون حرية الصحافة حقيقة واقعة وليست شعارا يرفع ، وظل الرئيس السادات عند رايه هذا حتى فى أحلك الظروف التى مرت بها مصر

والتى تعرضت فيها الجبهة الداخلية لهزة عنيفة وكان الرئيس السادات فى وقت تلك الازمة يؤكد باستمرار على ان القلم مسئولية وشرف وانه لن يسمح بان يكون القلم سبيلا الى اليأس أو الانهزامية او بث السموم،

وعندما احتدم الحوار حول ورقة اكتوبر اصر الرئيس السادات على ان يستمر الحوار على صفحات الصحف وفى كل المؤسسات الدستورية قائلا بعبارة صريحة وواضحة : اننى عازم على اجتياز طريق الديمقراطية

على ضوء ظروفنا حتى نهايته عازم على أن تتسع سبل الحرية امام جماهير شعبنا يوما بعد يوم ولا تضيق عازم على أن اظل مسئولا الا يكبت رأى ولا يقهر فكر »
« لقد كان البعض يتخوف من التجربة ، ولكنى كنت واثقا

دائما ان شعبنا جدير بان يسير فى طريق الحرية والديمقراطية فى مسئولية ، ونضج واذا كان ثمة شذوذ هنا او هناك فهو الشذوذ الذى لا ينفى القاعدة وسرعان مايطويه النسيان »

●

والذى أستطيع ان اقوله بايمان وصدق على ضوء تجاربى فى الصحافة التى تجاوز عمرها ربع قرن من الزمان ان انور السادات قد وفر لصحافة مصر جوا من الحرية لم يتوفر لها من قبل ، وان كل كاتب او صحفى او مفكر يعبر عن رايه بصراحة ووضوح وفى حرية كاملة دون ضغط من احد او دون توجيه من هذه الجهة او تلك .. بل اننى اقول ان احدا منا لم يلحق به ضرر ما لانه نشر رايا معينا ، وان الاتحاد الاشتراكى الذى يملك ٥١٪ من أسهم المؤسسات الصحفية لم يتدخل او لم يحاول ان يتدخل ولو لمرة واحدة ـ فى السنوات الاخيرة ـ بفرض رأى معين أو اتجاه معين

بل ان بعضا منا ينتقد التنظيم السياسى وبعنف كما ينتقد الاجهزة الحكومية كما لم تنقد من قبل والذى أستطيع ان اقوله ايضا بايمان وصدق ، ان حصول صحافتنا على حريتها بتلك الصورة المشرفة يعتبر فى رأيى من أهم الانجازات التى تحققت فى السنوات الخمس الاخيرة .

والذى أستطيع ان أقوله ايضا ـ وبايمان وصدق ـ ان الرئيس السادات لم يكتف بان حقق للصحفيين المصريين امالهم فى حرية الصحافة ، التى كانت بالنسبة لهم أملا بعيد المنال ، وانما عمد الى توفير كل الامكانيات المادية والادبية التى تمكن الصحافة من اداء رسالتها كسلطة رابعة وكمؤسسة من اهم مؤسسات الدولة ، ولعل فى مقدمة مايعتز به الصحفيون المصريون فى هذه المرحلة الخطيرة من مراحل تطور بلادهم ان تتاح لهم الفرصة للمشاركة فى عمليات التطوير والتغيير دون اى قيد من هنا ، او من هناك كما ان فى مقدمة ما يعتز به الصحفيون المصريون ان اصبح لهم مجلس اعلى للصحافة يشرف على أخطر الامور التى تتعلق بالصحافة وبالصحفيين

ومصر اليوم اذ تفخر بما حققته ـ فى عهد الرئيس السادات من انجازات سياسية واقتصادية واجتماعية فانما تفخر فى نفس الوقت بصحافتها الحرة

صبرى أبو المجد